مع الفرانكفونية ..ضد العولمة!!

نحو ثقافة عربية تمد ظلالها على العالم

* فايز البخاري
faiz.faiz619@gmail.com

في المساعي الحيثية التي تقوم بها فرنسا حالياً من أجل تعميم ثقافتها الفرنكفونية استطاعت وتمكنت من أن تخصص يوماً عالمياً للفرانكفونية .

وهذا يعد مؤشراً ايجابياً لدى غالبية دول العالم التي تشجع الفرنكفونية لا حباً فيها ، ولكن من أجل الندّية وإيجاد ندٍ قوي يوازي أو يقلل من شأن العولمة التي ترعاها الولايات المتحدة الأمريكية وتحاول صبغها بالصبغة الانجليزية في محاولةٍ منها لجذب تأييد المملكة المتحدة ، وفي الوقت نفسه للتقليل من الشأن الكبير الذي تعتز به الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس أو لنقل الإمبراطورية المتهالكة .

فرنسا اليوم استطاعت إن توجد لها قدم سبق في الثقافات العالمية ، وتمكنت من خلالَ إنشاء التحالفات مع الدول التي كانت تستعمرها وبعض الدول التي تميل إلى ثقافتها أن تكوّن الفرنكفونية التي أضحت اليوم هي المنافس الأكبر للإرث البريطاني والعولمة التي تجتاح العالم بدعم مباشرٍ وكبير من قبل الولايات المتحدة الأمريكية ، خاصةً بعد سقوط المعسكر الشرقي الذي كان يمثله الاتحاد السوفيتي السابق . ومن خلال كتابات ونقاشات العديد من المثقفين العرب أستغرب لمدى الحماس الذي يبديه بعض هؤلاء المثقفين إزاء ثقافة الفرنكفونية التي يعلقون عليها آمالهم في مواجهة التيار القوي الذي تقوده عولمة الولايات المتحدة ، والتي يسميها أو يعرفها بعضهم بأنّها تعني ـ أي العولمة ـ أمركة العالم ، وصبغة بالصبغة الأمريكية ، والتي هي في حقيقة الأمر صبغة مجهولة لا هوية لها ولا جذور ولا حضارة ولا تاريخ .وهذا يعني أنّ تعميم العولمة على العالم يعني القضاء على الثقافات والحضارات العالمية الضاربة بجذورها في أعماق التاريخ كالصينية والعربية والإسلامية والهندية والفارسية والرومانية وغيرها من الحضارات التي كان لها ولا يزال شأن" وآثار" باقية تدل على عظمة هذه الحضارات وهذه الدول التي تنحدر من سلالات أولئك العباقرة الذين مدوا ظلالهم إلى بقاعٍ شتى من الأرض .

أنا أستغرب لحماس المثقفين العرب للفرانكفونية بل وألومهم على ذلك لا لأني أميل للعولمة أو لرعاتها ، فأنا أحياناً أميل إلى رأي بعض الغلاة الذي يقولون أو يعرّفون العولمة ليس بأنّها أمركة العالم فقط ، بل صهينة العالم باعتبار أنّ اللوبي الصهيوني هو الذي يسيطر على السياسات الأمريكية ويوجهها في كل المسارات ، ولكن لأني أريد منهم أن يبحثوا عن وسائل مفيدة لغرض وتعميم ثقافتنا العربية ، الثقافة التي يحق لنا أن نفخر بها وأن نعتز بها أمام العالم ، فهي هويتنا التي تعبر عنا وتعكس صورتنا الحقيقية خاصةً وأنّ ثقافتنا العربية الإسلامية ثقافة ذات حضاراتٍ متعددة ولم تكن في يومٍ من الأيام ثقافة دخيلة أو مجهولة النسب .

ثقافتنا أصليةٌ وترعاها حضارة عريقة فاقت العالم قروناً عديدة والتي هي الحضارة الإسلامية ، ناهيك عن الجذور الموغلة في القدم لهذه الثقافة التي تمتد إلى حضارات ،وليس حضارةً ، وادي النيل ،وحضارات الهلال الخصيب أو بلاد الشام كالفينيقية والكنعانية والآرامية ، وحضارات بلاد ما بين النهرين أو العراق كالسومرية و الآشورية والكلدانية والأكادية والبابلية ، وحضارات جنوب شبه الجزيرة العربية أو اليمن كالحميرية والسبئية والمعينية والقتبانية ، وحضارة مشرق الجزيرة العربية المتمثلة بدولة كندة والمناذرة ،وحضارة شمال الجزيرة العربية المتمثلة بدولة الغساسنة والأنباط في البتراء وفلسطين .

ومثل هذه الثقافة العريقة التي انبثقت عن هذه الحضارات ورعتها فيما بعد الحضارة الإسلامية التي امتدت من مشرق العالم القديم إلى مغربه ، هي التي يجب أن نفاخر بها اليوم وأن يتحدث حولها مثقفونا ويتجادلون حول السُبُل الكفيلة بتوسيع انتشارها ومدُ ظلالها في كل أرجاء العالم .

العولمة منذ بدأت وهي تجتاح بقوةِ معظم الثقافات التي لا تقوم على أساسٍ قوي وليس لها جدار قوي تحتمي خلفه أو تريد إليه ،لكنّها لا ولن تستطيع أو تتمكن من اقتلاع الثقافات ذات الحضارات العريقة ، بدليل فشلها حتى اليوم عن طمس هوية الهنود الحمر الذي

يسكنون في عقر دارهم رغم التقتيل والتنكيل والتفرقة العنصرية التي تمارس ضد هؤلاء الضاربين بجذورهم في أعماق التاريخ .

والعولمة كذلك تقف اليوم عاجزة عن منع الفرنكفونية من مد ظلالها على بعض الدول التي تستجيب لها وتبدي لها القبول ، خاصةً الدول التي كانت مستعمرة من قبل فرنسا وهي دول مهمة ولها تواجدها وحضورها العالمي مثل لبنان وسوريا والجزائر والسنغال وجيبوتي وغيرها من الدول التي ما يزال معظم أهلها يتكلمون الفرنسية ويدرسونها في مدارسهم وجامعاتهم .

ولعلّ الشعور الذي تولّد لدى معظم الدول من أنّ العولمة تسعى بالدرجة الأولى إلى صهر ودمج العالم في بوتقةٍ واحدة تزول فيها وخلالها كل الملامح القديمة أو الأصلية التي تميز أي ثقافة لتصبح جميع الثقافات في ظل العولمة هي ثقافة واحدة ، ثقافة من منظور أمريكي ، لعل ذلك الشعور هو الذي دفع اليوم الكثير من الثقافات ذات الحضارة العريقة إلى الدخول فيما يشبه التصادم مع العولمة التي تتبناها الولايات المتحدة ، وتحاول من خلالها طمس هُويّات الشعوب لتصبح كل دول العالم دولاً بلا هويات ولا ثقافات محددة مثل الولايات المتحدة نفسها التي تحس أنّها شيء" نشاز في جسد العالم الحضاري ذي الثقافات العريقة .

وفي هذا السياق بدأت بعض الدول العظمى مثل فرنسا والصين واليابان وألمانيا حتى إيران وريثة الإمبراطورية والحضارة والثقافة الفارسية ، بدأت تعمل على توطين نفسها في هذا العالم المزدحم بثقافة العولمة التي باتت تشكل خطراً كبيراً على مستقبلها ليس الثقافي فحسب بل والاجتماعي واقتصادي والعسكري أيضاً، باعتبار الثقافة هي المفردة التي تكاد توازي الهُويّة .

والآن بدأنا نلاحظ انتشاراً كبير للفرانكفونية من خلال المراكز الثقافية التي تقيمها فرنسا في معظم البلدان ، ليس التي كانت تستعمرها فقط ، ولكن حتى الدول التي لم تستعمرها ولم يكن لها أيّ علاقة بها من قبل .

ولدينا نحن هنا في اليمن مركزان ثقافيان فرنسيان :الأول في صنعاء ، والآخر في عدن ، وكلاهما يعمل على الترويج للثقافة الفرنكفونية ، ويسعى جاهداً لتعميمها ، ومحاولة إيجاد أكبر مساحة لها في هذا العالم .

ولم تقتصر الجهود الفرنسية لتعميم الثقافة الفرنكفونية على المراكز الثقافية فقط ، بل امتدت تلك الجهود لتشمل الجامعات ،باعتبار أنّ الجامعات هي المراكز الأكثر تجاوباً وتأثيراً في المجتمع . وقد تمثل ذلك بإقامة وإنشاء العديد من أقسام تعليم اللغة الفرنسية في الكثير من الجامعات العالمية ، بما فيها الجامعات العربية ، والتي تأتي من ضمنها الجامعات اليمنية .

وهذا ليس خطراً على ثقافتنا ـ خاصةً وهي تقدم كل الإمكانيات والدعم اللازم لمثل تلك الأقسام التي باتت تتزاحم جنباً إلى جنب مع أقسام اللغة الانجليزية التي ظلت الى وقت قريب هي الأقسام الوحيدة لتعليم اللغات غير العربية . فذلك جزء من اطلاع الشباب العربي على الثقافات الأخرى ، وعامل مهم في تعزيز الأواصر بين دول وثقافات العالم الخارجي ، ناهيك عن أنّهُ سيكونٍ ـ كما يرى بعض المثقفين العرب ـ وسيلةً للحد من انتشار العولمة ،وعدم فرض الولايات المتحدة الأمريكية هيمنتها الثقافية إذا وجدت ثقافات مزاحمة لها مثل الفرنكفونية .

ما تقوم به الصين حالياً والتي يعدها بعض الكُتّاب والمفكرين الغربيين التنين الأكبر الذي يسيطر على العالم مستقبلاً ، بل والإمبراطورية العالمية التي ستسود العالم والكون خلال القرن الواحد والعشرين نظراً لوجود المؤهلات والبنية التحتية المتكاملة التي تؤهلها لتبوأ هذا المكان المرموق على مستوى العالم . فما تقوم به الصين حالياً في ظل هذا الزخم الذي يروج له الغربيون أنفسهم من محاولة فرض سيطرة على معظم دول جنوب آسيا بطريقةٍ أو بأخرى ، هو نذير شؤم على العولمة ، وناقوس خطرٍ مؤذن" بزوالها عن قريب .

اليابان وألمانيا وإيران وتركيا بدأت تحاول فتح أقسام لتعليم لغاتها في أكثر من دولة ، في محاولةٍ لاستعادة المجد القديم ،والدخول في حلبة المنافسة مع العولمة لإيجاد أماكن مناسبة لكلٍ منها في ظل هذا العالم الفسيح الذي تحاولَ العولمة السيطرة عليه بمفردها .

وإذا كانت فرنسا قد سبقت الجميع بتعميم الفرنكفونية من خلال أقسام تعليم اللغة الفرنسية في الجامعات وإنشاء المراكز الثقافية في العديد من الدول ، فإنّها ما تزال حتى الآن هي الأكثر حضوراً ومزاحمةً للعولمة ، من خلال الدعم السخي الذي تقدمه للفرانكفونية ، وأنشطتها العديدة التي وصلت الآن إلى مستوى إدخال اللغة الفرنسية كمادة أساسية لطلاب المدارس في العديد كمن دول العالم بما فيها اليمن التي بدأت بعض المدارس في عواصم بعض المدن بتطبيق ذلك ، بدعم وتمويل من الحكومة الفرنسية .

إيران تنهج اليوم الشيء نفسه ، واليابان وألمانيا كذلك وتركيا في طور البدء .. كل ذلك والعرب يشاهدون ويجادلون حول هذه الثقافة أو تلك ، ولمّا يلتفتوا بعد إلى الخطورة الأهم وهي إيجاد إستراتيجية شاملة وكاملة ودقيقة لتعميم الثقافة العربية على كل دول العالم .. الثقافة التي تملك مخزوناً حضارياً متعدداً وعريقاً ، وبرأيي أنّها إذا ملكت الإمكانيات نفسها التي تمتلكها العولمة أو الفرانكفونية فإنها حتماً التي ستسود كل ثقافات العالم .. فليت شعري بأيّ عقدٍ أو قرنٍ من الزمن سيتحقق هذا الأمل الجميل ؟؟!!

عائداً إلى الطين

أحمد المعرسي

معنىً يطاردُ في دمي معنى
وكأنّ هذا الهجسَ قد جُنّا
وقصيدةٌ باتتْ تراودُني
أسماؤها وصفاتُها الحسنى
وأنا بلا وعيٍ أقلّبُ في
كفِّ المشيئةِ هاجساً مضنى

* * *

يا ليلةً أنوارُها انطفأتْ
لن تطفئي في داخلي اللحنا
ما زلتُ خلفَ الغيبِ أغنيةً
مجنونةً أنفاسُها وسنى
ما زلتُ والآهاتُ قبعتي
فجراً يطاردُ حلمَه الأسنا
يا ليلةً سمراءَ مورقةً
روحي بغيرِ النور لا تُعنى
اللهُ في قلبي أراه به
سبحانَ من كنّا به كنّا

* * *

يا ليلةً وسمعتُ قائلَهم
في روحِك الأحبابُ والسُكنى
يا ليلةً ما أنّ شاعرُها
إلا لأنّ محبّه غنّى
هذا بساطُ القربِ فاشتعلي
لا, لا تقولي هاهنا عُدنا

* * *

وتقولُ لي روحي معاتبةً :
البوحُ أقسى ما يُرى مِنّا
يا شاعراً ما غابَ في لغةٍ
إلاّ ليفني الكونَ أو يفنى
هذي يدُ الأقدارِ قدْ بُسِطَتْ
فامددْ وصافحْ كفّها اليمنى
سبحانَ منْ روحي براحَتِه
إن قلتُ شعراً قال لي :زدنا

اختراع العزلة

بعد ثلاثين سنة من الكتابة والإبداع و"اختراع العزلة"، كما جاء في عنوان أحد أعماله، يلقي بول اوستير نظرة من موقع ابن الستين من العمر، على مسيرة حياته. وهذه السيرة الذاتية هي في المقام الأول، نظرة تأمّلية على مسألة هروب الزمن، ووعي ذلك عندما يتقدّم الإنسان في العمر. وبالطبع تخص "وقائع الشتاء"، كما جاء في العنوان، قصة فتى أميركي، اسمه بول اوستير.

الحادث الأكبر الذي يحتفظ به بول اوستير من طفولته هو ذلك الموت المبكّر لأبيه، والذي ظلّ بمثابة صفحة صعبة لم تبارح مخيلته طيلة حياته. يضاف إلى ذلك، الألم الذي عاشه بسبب المصير المتعثّر الذي عرفته أمه.

ما يبوح المؤلف فيه، أنه حاول في بداية مسيرته في عالم الكتابة، أن يسيطر على الحزن الذي كان يعيشه في داخله. وبالتالي، أن يثبت مكانته ككاتب في عالم الأدب والإبداع. ولا يتردد في الاعتراف بكثير من مشاغبات الشباب وجنونه. وكذلك الاعتراف بما يمكن أن يمثله قدوم الشيخوخة من خوف ورعب داخلي. بل ويرى أن مسيرة الإنسان، كل إنسان، محكومة بمحدودية جسده.

إن "وقائع الشتاء"، كما جاء في عنوان الكتاب، هي بالدرجة الأول وقائع الجسد، بالنسبة للروائي ذي الشهرة العالمية بول اوستير، وهو يكتب في المقام الأول عن تاريخ جسده. وعما عاشه من "أحاسيس عذبة وأحاسيس مؤلمة".

ومن خلال الحديث عن الجسد والموت. يتحدث اوستير عن الزمن و"الدور في الزمن" من حالة إلى حالة. وفي هذا المعنى أيضا، ينتقل مما هو شخصي إلى العام. ومن خلال "وقائع شخصية" يتوجه بالحديث إلى أولئك الذين يقرؤون سيرة حياته، ويجعلها بمعنى ما سيرتهم.

ويرى في هذا السياق أن "الكتابة تبدأ في الجسد، إنها موسيقى الجسد". مثلها في ذلك مثل الفرح والحزن وكل المشاعر الأخرى.

يتطرق اوستير إلى وقائع وأحداث وأشخاص، تدور في محورها حول أبيه وأمه وأسرته. لكنه يتحدث أكثر وأكثر، عن المشاعر التي عرفها في حياته، منذ سنوات الطفولة حتى عمر البلوغ ثم النضج، ووصولا إلى النهاية الطبيعية المتمثلة في الشيخوخة. وفي هذا المعنى أيضا، يتحدث عن "ربيع طفولته" .

وما عرفه من "أزهار جميلة تجلب الكثير من الإحساس بالفرح". وتلك العصافير التي كانت توجد فجأة، ذات صباح، في فناء الدار. إنها مجموعة من الأشياء الصغيرة التي "تعيش فينا" منذ الطفولة. وتعرف، كما يقول، كيف تقاوم النسيان. إذ "تختزنها الذاكرة" حتى النهاية.

يحكي اوستير بكثير من التأمّل، عن "السير في الطبيعة"، أي رياضة المشي التي كان يمارسها بمتعة كبيرة. ويدرج كلمة عابرة عن المدرسة العمومية التي كان يذهب إليها كل صباح فـ"كل الذين كانوا يعيشون في الحي استطاعوا التردد إليها مجانا". ويتعرف القارئ، خلال مسيرة المؤلف، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، على الكثير من التفاصيل، عما كان يفضله من الطعام عندما كان صغيرا. وكذا على جميع الأمكنة التي عاش، أو مرّ فيها، وعلى أولئك الذين أثاروا إعجابه.

ولا ينسى اوستير أن يذكّر قارئه، أنه يمارس دائما كتابة أعماله الأدبية، على "آلة كاتبة يدوية". وأنه فخور بمكتبته الصغيرة في منزله. ويصف نفسه "الذات الوحيدة، الشخص الوحيد .. رجل صامت مقطوع عن بقية العالم". وهو يوم بعد، يجلس خلف مكتبه ولا هدف له سوى التنقيب عما يختلج في أعماقه. وهذا يذكّره، كما يقول، بمبدعي الماضي الكبار، من أمثال: جيمس جويس وموليير.

إن "وقائع الشتاء"، عمل تأمّلي شخصي، حول الجسد والزمن والذاكرة، يقدمه أحد أشهر الكتّاب المعاصرين.

المؤلف في سطور

بول اوستير كاتب أميركي. بدأ نشاطه الأدبي كمترجم للشعر الفرنسي. قرض الشعر أولا ثم تحوّل إلى الرواية. كما انه أخرج أفلاما سينمائية عديدة. من مؤلفاته: اختراع العزلة، فن الجوع.

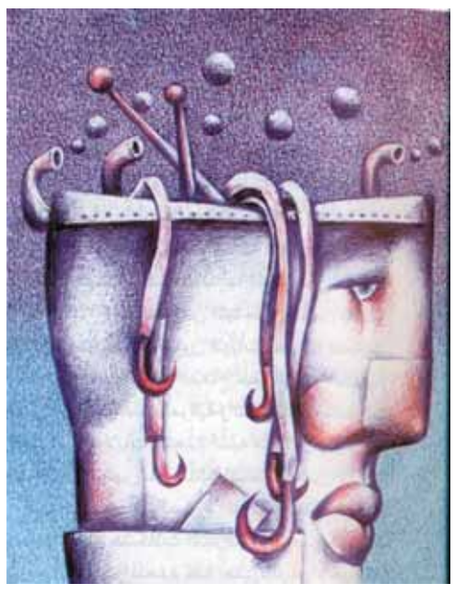

الكتاب: وقائع الشتاء - تأليف: بول اوستير - الناشر: هنري هولت- نيويورك 2012 - الصفحات: 240 صفحة - القطع : المتوسط

الشخصية الكلاسيكية

صدر حديثاً عن المنظمة العربية للترجمة كتاب ببيروت: "الشخصية: النظريات الكلاسيكية والبحث الحديث" تأليف هاورد فريدمان وميريام شستك، ترجمة السيد أحمد رمو.

يسعى هذا الكتاب إلى تعريف الشخصية وتكوّنها واستكشاف منظوماتها النفسية جامعاً بين الرؤى الكلاسيكية لمنظّري الشخصية من كبار علماء النفس والبحث الحديث في سياق يشجّع التفكير النقدي بالطبيعة البشرية. ويحلل المؤلفان في كتابهما، المرتكز على أسس علم النفس، نظريات الشخصية باستخدام أمثلةٍ لتسهيل توضيحها وفهمها، ويصوغان بحثهما حول ثمانية جوانب أساسية للشخصية منها جوانب التحليل النفسي والأنا أو الذات، فضلاً عن الجوانب البيولوجية والسلوكية والمعرفية، في ظل سؤالٍ أساسي: هل البيئة هي التي تصوغ شخصية الإنسان أم أن هناك شيئاً فطرياً يستحث أنماطاً سلوكية معيّنة؟

• هاورد فريدمان: أستاذ مميز لعلم النفس في جامعة كاليفورنيا، ريفرسايد (UC Riverside)، حيث يدرّس الشخصية والصحة. وهو زميل منتخب لقسم الشخصية وعلم النفس الاجتماعي وقسم علم النفس الصحي لجمعية علم النفس الأميركية. تخرج بدرجة شرف من جامعة ييل (Yale)، وحاز على شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة هارفارد (Harvard).